الثقافة الإسلاميه بالمغرب

بين المرابطين والموحدين

كان الشرق الإسلامي في عنفوان ازدهاره ، وريعان إشراقه ، بالحكمة الدينية الطيبة الثرى ، الراسخة الأعراق ، الملتفّة الأغصان ، التي أثمر في روضتها اليانعة : المنطق ، والكلام ، وأصول الفقه ، والجـــدل ، والفقه ، والتصوف .

وكان العقل الإسلامي قد اقتدى بالإمام الغزالي وسار على محجة التطور البعيدة المراحل ، وراء تلك الشعلة الوضاءة من المعرفة والرشاد .

لما كانت بلاد المغرب العربي ، من أقصى الأندلس إلى افريقية ، قد وقعت في أزمة خانقة من أزمات العقل والمعرفة ، بظهور قوة ناشئة خرجت من وسط افريقية ، مندفعة بحرارة إيمانها ، تقطع رمال الصحراء الكبرى إلى ضفة وادي درعة ، وواحات سجلماسة ، فاذا وهاد المغرب ونجاده تقبل بأعناق المهاري الصهب ، قد تمكنت من غواربها أجسام بشرية ملتحفة الأثواب الزرق ، ومتلثمة بها ، يلين الحديد ولا تلين ، وتخبو النار ولا تنطفئ حرارة تلك النظرات المتقدة بين أطباق اللثام .

أولئك هم المرابطون الذين انبعثوا ينشئون عاصمة المغرب الجديدة : مدينة مراكش ، ويمدون رواق سلطانها على طول العدوة الافريقية ببلاد المغرب ، ثم يرمون بحبل النجاة إلى العدوة الأندلسية ، في يوم الزلاقة العظيم ، لتقوم الشوكة وتحيي الدولة تحت ظل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كانت هذه الحركة رشيدة في الحكم ، سديدة في السياسة ، منقذة للاسلام من الخطر الذي داهمه في بلاد الأندلس ، ولكنها كانت سلطة قوية ، وإيماناً نقياً ، يشد السواعد ، ويقوي النفوس ، من قوم بعداء عن الحضارة والعلم ، متجافين عن النظر الحكمي العميق ، متمسكين بالفطر الأولى ، مقتنعين بنتائج الأنظار الساذجة .

فكان من أثر ذلك انهم لما وجدوا في أقطار المغرب العربي التي انتظمت في سلطانهم ، وجدوا تبايناً في الأنظار ، وتخالفاً في المذاهب بين الجانحين إلى شواهق الحكمة النظرية ، والمخلدين إلى بسائط الظاهر المأثور ، ووجدوا آثار ذلك الاختلاف بادية في طرائق الدرس والتأليف ، ومناهج التربية والتعلم .

فكان من الضروري أن ميلهم يتجه إلى مساندة أبسط المناهج وأقربها من متناول إدراكهم ، وانهم إذا وجدوا الاختلاف راجعاً إلى الدين وطرائق فهمه ، بادروا بساطتهم إلى الإسراع بالحكم بأن الذي انشرحت إليه صدورهم من ذلك هو الدين فقط ، وبادروا ـ بما هم عليه من حرارة الإيمان ـ بأن ما خالف ذلك جدير بالدحض والمقاومة ، وان ينزل بمن يقول به ما هو أهله من مقت وعذاب .

وعلى ذلك وجد المرابطون في مدينة قرطبة نزعة تقليدية التزامية ضيقة ، طالما ناءت بكلكلها على أهل البحث والنظر ، وأحرقت مواهب العلم الحق ، والفقه الصحيح ، إذ سارت على طريقة التقليد ، بحيث أصبح عمل المقلدين حجة لا يلتفت بعدها إلى كلام أئمتهم الأوّلين ، وهذه هي النزعة التي شكا منها القاضي أبو بكر ابن العربي في كتاب العواصم بثّه وحزنه مما لقي نبغاء العلم بالأندلس من عنت أهل قرطبة ، قال : « صار التقليد ديدنهم والاقتداء بغيتهم فكلّما جاء أحدهم بعلم حقّروا أمره ودفعوا في صدره الا" أن يستتر عنهم بالمالكية ، ويجعل ما عنده من علوم على وسم التبعية ، فان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جاءهم بفائدة في الدين وطريقة من سلف الصالحين وسرد لهم البراهين عرفوا جوانبه وتتجُّوا عجائبه ، وعيبوا حقه استكباراً وعتواً ، وجحدوا علمه وقد استيقنته أنفسهم ظلماً وعلواً ، وقد زاد في تأصيل هذه الحالة وإحكامها العملية الكبرى التي كان قام بها ، منذ القرن السابع ، الحاجب المنصور ابن أبي عامر بقرطبة عند موت الخليفة المستنصر الحكم بن عبد الرحمان الأموي وولاية ابنه هشام المؤيَّد ، فانه عمد إلى خزائن المستنصر وأخرج منها كل ما كان استجلبه من المشرق من عيون التآليف في العلوم الحكمية ، قديمة وحديثة ، فأمر بإحراقها وإهلاكها ، وقد وصف صورة ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم وقال : إن المنصور إنما فعل ذلك تحبباً إلى عوام الأندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم .

وقد استمرت هذه النزعة الغريبة المستولية على مدينة قرطبة تزداد ضيقاً وحدة وعنفاً ، وتعصف فتنها على التوالي بأعلام بارزين في غزارة العلم ومتانة الدين ، حتى دخل يوسف بن تاشفين إلى قرطبة ، فتجانست نزعته الشخصية مع تلك النزعة ، واشتد تأثره بها ، وعظمت نقمته على الذين لا يتولونها ، ولا يسلكون سبيلها ، فأصبح سلطانه ناراً مسعرة على أهل البحث والاجتهاد في الفقه ، وسيفاً قاطعاً للمشتغلين بالكلام والحكمة ، فهجر بذلك النظر في الأصول ، وتمسّك الناس بظواهر العقيدة السلفية ، والتزموا في الفقه النصوص الفرعية ، وتجافوا عن طرق التخريج في الفقه والتأويل في العقيدة .

وتفاقم أمر هذا التضييق بعد وفاة يوسف بن تاشفين في عهد ابنه علي الذي ولي عرش مراكش في نهاية القرن الخامس فكان في عهده الضغط الذي تعدّى إلى درجة النفي ، والاعتدال ، ونهب المنازل ، وإثارة المظاهرات الصاخبة ، ومصادرة الكتب ، وإحراقها ، وتمزيقها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد أحس علي بن يوسف والذين تظاهروا معه على ما كان يضطلع به من قتل للنبوغ العلمي : ان تلك الحركة التي ظهرت بالمشرق فألفت بين الحكمة والدين حتى أخرجت شطأها في كتب حجة الإسلام الغزالي هي التي تمد روح التحرر الفكري بالأندلس بمادة انتعاشه ، وترش من ماء العلم على تلك القلوب الميتة ، كما قال ابن العربي ، فعرفوا أن في كتب الغزالي حجة لا تدحض على ما كانوا يغالبون في سبيل دحضه من الجمع بين الحكمة والشريعة والحقيقة لمن أخذ بمعاقد العلوم من أعلاها ، فتآمروا على أن يحولوا بين كتب الغزالي وبين الناس ، إذ لا يمكن أن يدفع تأثيرها غير ذلك كما قال البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

حتى بلغ الأمر إلى أن أقيم مجمع بقرطبة لإحراق كتاب الإحياء للغزالي ، وصدرت الأوامر إلى أطراف السلطنة المرابطية بإحراقه ، واعتقل في مراكش من كان يتوسّم فيه إنكار تلك الفعلة من أنصار العقيدة الأشعرية ، وأتباع الطريقة الغزالية القشيرية : مثل ابن العريف الذي مات أسيراً في مراكش ، كان هذا الضغط البالغ القاسي يجد في وجهه إنكاراً أبلغ ، وتحدياً أقسى ، إذ كانت المدارك العالية الواسعة والأفكار النيّرة قد تشربت عقيدة الأشعريّ ودرجت على نهجها ، واتّخذت كتب الغزالي دليلها على ذلك المنهج ، وطار صيت الغزالي إلى المغرب ، فارتفع وعشش ووجد نابغة البلاد التونسية ومجتهد المذهب المالكي ومجدّده الإمام أبا عبد الله محمداً المازري يحميه مقامه تحت الحكم الصنهاجي بتونس ، من طائلة المرابطين وغائلتهم فوجدوا فيه أخاً معاوناً على خدمة الأشعرية ، ومشاركاً في الارتواء من منهل إمام الحرمين ، فقد أقبل المازري على كتب إمام الحرمين والغزالي في أصول الفقه ، يقرّرها ويعلّق عليها بما هي أهله ، وكتب على كتاب البرهان لإمام الحرمين شرحين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحدهما بتتبع النصّ والآخر بمسايرة المعنى، يذكر فيها الغزالي ذكراً مرداً مع ذكر القاضي أبي بكر الباقلاني والأستاذ أبي اسحاق الاسفرايني، ويكثر من قرن الغزالي بإمام الحرمين معبراً عنه بكنيته «أبو حامد» ومخصصاً إمام الحرمين بلقب «الإمام» ومنتصباً لتعزيز كلام الغزالي وتوجيهه، كانتصابه لتقرير كلام إمام الحرمين في ما يختلف فيه إمام الحرمين عن الغزالي من تفاريق المسالك، وبهذه الدراسة الأصولية تمكّن المازري من تحرر واسع في تقرير الأحكام الفقهية على منهج اجتهادي هو منهج الاختيار والترجيح الذي جعل أعلام طريقته فيه شيخيه: أبا الحسن اللخمي، وعبد الحميد الصائغ، فكان هذا التجاوب بين الغزالي والمازري من أقوى العوامل في الخروج بمقام الغزالي عن الدائرة المذهبية الضيقة، إلى دائرة الحكمة الإسلامية المشاعة، وكان هذا الصيت الذي طار له بالمغرب على لسان الإمام المازري، قد طار نحو الغزالي بقلوب الشبان النابغين من أبناء المغرب الكبير المتطلعين إلى أرواح الحكمة السامية المنبعثة من بين أردانه فهجروا أوطانهم وشدوا الرحلة للقيا حجّة الإسلام.

وكان في مقدمة هؤلاء النوابغ الإمام الشهير الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي الذي كانت رحلته مبدأ فتح فكري، والإمام المهدي محمد بن تومرت التي كانت رحلته مبدأ فتح سياسي.

كان أبو بكر ابن العربي برماً بالوضع الذي عليه العلوم الدينية في الأندلس، متطلعاً إلى منبع الحكمة الأشعرية، مشوقاً إلى لقيا الغزالي، فسافر مع والده سنة ٤٨٥ هـ. في مقتبل شبابه وقصد المدرسة النظامية ببغداد، إلاّ أنه وجد الغزالي قد انقطع عن الدرس والعلم وأقبل على طريقة الرياضة الصوفية والخلوة والسياحة، وخرج من بغداد إلى الحجّ، ثمّ إلى الشام ومصر، فأقام ابن العربي في بغداد خمس سنين متحرّقاً على أنه لم يظفر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بمطلبه في لقاء الغزالي ، مستوحشاً من ذلك الفراغ الذي خلفه وراءه في بغداد ، والحسرة التي سادت بسبب ذلك ساحات المدرسة النظامية وعامة أوساط العلم في بغداد حتى كان من عجائب الأقدار أن الغزالي دخل إلى بغداد في سنة ٤٩٠ هـ . في طريق عودته من الشام إلى إيران ، فأقبل عليه ابن العربي إقبال المشوق اللهفان ، وتلقاه الغزالي بقبول طيّب ، وتفرغ له بصفة خاصة ، فقرأ عليه محاورة ومناقشة ، وتمكّنت منزلته العلمية من نفسه ، واطمأن إلى طريقته الحكمية الدينية ، وكان يلقّبه تودّداً وتحبباً بلقب تعظيم فارسي هو لقب « دانشمند » .

وعاد ابن العربي إلى الأندلس يهاجم ويناظر ويفيض نميوث الأنظار العالمية محاضرة ، وتدريسا ، وتحريراً ، وينقح الفقه المالكي بتحقيقه لمناط الأحكام ، ونظره في أدلتها ، ونقضه على الفقهاء ما كان يفتون به تقليداً أو عن ضعف دليل ، فملأ كتبه النفيسة العجيبة بذكر الغزالي ، والتعلق بمتين محبّته ، وجليل إعظامه ، والتلذذ باعادة محاوراته ، وتجديد مطارحاته ، ومقابساته ، مع أن ما تشربه من حرية البحث وكرامة المعرفة ، كان يدفع به إلى مناقشة أستاذه وحبيبه دانشمند في كثير من أقواله وآرائه ، مثل بحوثه المستفيضة معه في كتاب « العواصم من القواصم » حول مسألة إدراك النفوس بذاتها للحقائق بطريق الانكشاف وتأثيرها في الغير عند التجرّد ، ولم يسلم ابن العربي ممّا أصاب أسلافه من فحول العلماء من المحن ، فقد استهدف فتناً كثيرة ، وثورات عليه هوجاء ، نهب فيها منزله ، وأحرقت كتبه ، حتى انتهى أمر المرابطين بظهور الدعوة الموحدية التي أسسها المهدي ابن تومرت ثاني الاثنين اللذين جعلناهما على رأس الراحلين من المغرب للقاء الغزالي ، وكأن الأقدار أرجعت المهدي إلى المغرب ليثأر للغزالي من الذين أرادوا إنكار فضله ، وغمط حقّه ، بإحراق كتاب الإحياء ، وهم المرابطون ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكانت دعوة المهدي بن تومرت عاملاً في إقامة دولة الموحّدين التي أسقطت دولة المرابطين وورثت عاصمتها ، فأقامت على مبادئ الأشعري وطرائق الغزالي ، أقوى دولة عرفها تاريخ الإسلام في المغرب على يد عبد المؤمن بن علي ، ولم تنته حياة ابن المربي حتى اشترك في إقامة تلك الدعوة ، وقصد من إشبيلية إلى مراكش ليقف بين يدي عبد المؤمن خطيباً بلسان أهل إشبيلية ، وكأنه قنع من الدنيا ببلوغ ذلك الموقف فكانت وفاته في طريق عودته من مراكش قرب مدينة فاس التي دفن أمام سورها .

كان المجتمع الإسلامي بالمغرب العربي قد أحس بوطأة الضغط الشديد الذي ضيّق عليه الأنفاس في ما أحاطت به من هيكل جسمه قبضة حكم المرابطين .

وكانت الأعضاء التي خرجت عن تلك القبضة الحديدية الخانقة وهي البلاد الشرقية في الشمال الإفريقي تتداعى ألماً وغماً من ألم الضغط النازل على سائر الأعضاء التي كانت يد المرابطين تعصبها عصب السلمة وكان هذا الألم يقوى ويشتدّ عندما تشعر المناطق الغربية من هذا الشمال الإفريقي بأن حكم أهل اللثام قد أقام بينهم وبين بقية بلاد المغرب العربي سدوداً حاجزة ، فكّكت الأوصال ، وقطعت الأرحام ، وجعلت الفرقة سارية في روح الوحدة القومية الكبرى ، لما تجاوزت بها حدود الفواصل السياسية وأوضاع الدول ، إلى مفاوز الفروق الاعتقادية والمنازعات الدينية .

على أن ما كان للمرابطين من عمل سياسي مجيد في إنقاذ الأندلس وتوحيدها وضمها إلى مملكة الإسلام في المغرب الإفريقي ، وإن أكسب تلك الدولة قوّة نفوذ وحسن قبول ، فقد زاد في الحسرة التي امتلكت القلوب من جراء الفتنة الاعتقادية التي أبعدت المجتمع عن تحقيق مثله العليا على نسبة ما قربت آماله في تحقيق تلك المثل بانضمام الأندلس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالحركة الفكرية الناشطة في البلاد التونسية ، بتواصلها مع مراكز الثقافة الإسلامية في الشرق ، وبعد صيت محورها الإمام المازري وخصب نتاجه العلمي المنافي لاتجاهات الحكم المرابطي ، كانت بذلك كلّه مدداً مغذياً لروح الصلابة في التجافي عن طرائق العقائد المرابطيـــة وجمْراً مذكياً لروح التمرّد عليهم والثورة في وجوههم ، فكانت حلق العلم منابع فياضة بالتوجيه إلى العمل الإيجابي في سبيل حماية الحرية الدينية والحفاظ على شعلة الحكمة الكلامية العالية التي كادت حركة المرابطين أن تطفئ نورها ، عمّ ذلك جميع البلاد التي انتظمت في حكم المرابطين بالأندلس والمغرب الأقصى والبلاد الجزائرية ، فكان الناس يشدّون الرحلة من تلك الأقطار مترامين على مجالس دروس الإمام المازري بالمهدية ، مثل ما جاء أبو بكر ابن العربي ، وعبد المنعم ابن الفرس ، وأعلام من نبغاء الفكر والأدب ، علاوة على الذين لم يتمكنوا من الرحلة فقنعوا بالاتصال بالامام المازري بطريق المراسلة ، يستجيزونه ، ويطلبون كتبه ، ويستمطرون من فوائده ، ويطارحونه المسائل ، كما فعل ذلك القاضي عياض وابن رشد الحفيد ، وتمثل ذلك علا نجم المازري في أفق المغرب كله بين عدوتيه الافريقية والأوربية حتى عرف « الإمام » لقباً غالباً عليه فكان اسمـــه واسم الغزالي اسمين مقترنين تتعلق بهما أنظار المستهدين على طريق الحكمة الإسلامية ، كما يهتدى بالفرقدين .

وكان من عجيب القرانات إن إشراق هذين الكوكبين في سماء الفكر يقابله أفول طامس اعترى نجم الحكم المرابطي بدخول الدولة في دور الوجود الأجدب ، لما فارقت نشأتها الساذجة ، وطلعتها الحادة ، وأخلدت إلى النعمة والترف ، والبذخ واللذة ، فأضاعت شبابها لما أضاعت عصبيتها الدينية الصلبة الطاهرة ، وأقبلت على الهرم المضني ، والشيخوخة الفانية ، وتجرّدت عن محاسنها ، وتمحضت لمساويها ، وتشرب منها المجتمع روح الانحلال فانتشرت فيه المفاسد وسادت الشهوات وسيطرت الأنانية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان هذا القران العجيب ، بين نجم صاعد ونجم آفل ، قراناً لا يدرك بالتنجيم والحزاء ، بل يدرك بالذكاء والدهاء ، والفطرة السليمة ، والسياسة القويمة ، وذلك هو ما أعطيه شاب من قبائل المصامدة ، سكّان الأطلس الكبير ، كان يشرف من صياصي الجبال الشم على مدينة مراكش فيتوسم فيها ما حدّثته به النفس التوّاقة من أن يوماً قريباً سيأتي على المدينة الحمراء تبكي فيه من بناها ذلك هو محمد بن تومرت ، نشأ في بيت بربري من بيوت الرباط والنسك ، فشبّ قارئاً ، محباً للعلم ، متشرباً بروح الثقافة العربية الإسلامية ، وكان هذا العنصر البربري الجبلي الذي ينتسب إليه ابن تومرت يشعر بمكانته العظيمة من الأرض التي استقرت فيها دولة المرابطين ، ويدرك شأنه العظيم في إسناد تلك الدولة بمسالمتها وتأمينها ، ويعلم ، إلى جنب ذلك ، أن دولة الملثمين لا تؤتى إلاّ من جهة ذلك التيار الديني القوي الذي تريد أن تدافع سيوله ، تيار العقيدة السنيّة التي عليها الخلف من أجيال المسلمين الصالحين ، وحيك في نفسه هذا التوقع لقرب مصرع الدولة اللمتونية ، فأصبح مرتبطاً بذاتيته حتّى اقترن بها وتقمّصها ، وأصبح محمد ابن تومرت في نظر نفسه هو روح الفناء المنبعثة على دولة المرابطين ، وأحسّ بأن كل عمل في سبيل تكوين شخصيته وإنمائها ، وتربية كيانها الأدبي ، هو سلوك لطريق القضاء على الملثمين ، واستشرف بنظره إلى الجهة التي كان يتنسم منها أنفاس المقاومة المستمدة من توجيه الحكمة الإسلامية الجديدة ، فخرج من وطنه وليس أمام عينيه إلاّ المازري والغزالي ، ودخل البلاد التونسية ، ثمّ قصد مصر ، والحرمين الشريفين ، والعراق ، وكانت العراق يومئذٍ مركز الحركة الحكمية التي اتجه بها الإسلام وجهته الجديدة ويذكر الكثيرون ممّن ترجموا ابن تومرت : أنه لقي الإمام المازري بالمهدية ، ولقي الإمام الغزالي في بغداد ، وقد ذهب الزاعمون في اجتماعه بالغزالي إلى أبعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ذلك ، إغراقاً في الوهم ، فجعلوا الغـــزالي يخبره من مستقبل أمره بعلم خفي ، ويخبره بالدولة التي سيقيمها ، وكلّ هذه أخبـار واهية لا دليل عليها ، بل الذي يقتضيه ما ذكره المؤرخون ، من تاريخ دخول ابن تومرت إلى العراق : أنه لم يلق الغزالي أبداً ، لأن الغزالي لم يكن يومئذ بالعراق بل انّ أكثر مدّة إقامة ابن تومرت بالمشرق كانت بعد وفاة الغزالي .

ولكن الأمر الثابت : أن هذا العبقري البربري قد تشرب في رحلته المشرقية الحكمة الأشعرية ، وتعلّق بها ، لما كان لها من الانسجام مع تطلعه إلى قوّة تؤثر في تقويض ملك المرابطين ، فجعل التعلق بالأشعرية والانتصار لها درعاً استلأم فيها لمهاجمة قرنه وجعل المهدوية السيف الذي يحمل به ، وسواء أصحّ لقاء ابن تومرت للغزالي أم لم يصحّ فما من شكّ في أن ابن تومرت كان على منهج الغزالي وأنه قد وجه دعوته وعمله على ذلك المنهج .

إلاّ أن الذي يرجّح في نظرنا أن الأشعرية والغزالية لم يكونا عنده غاية مقصودة بالخدمة والنصرة وإنّما كانتا وسيلة لتحقيق مقصد سياسي ، إنه قد انتحل ، إلى جنب أشعريته ، عقيدة ينكرها الأشاعرة ويدحضونها ، كما ينكرها أهل السنّة قاطبة وهي عقيدة الإمام المعصوم ، التي يقول بها الشيعة الإمامية ، وتلك هي التي قال فيها ابن خلدون : إنه لم تحفظ عنه فلتة في البدعة غيرها .

ومن هنا نستطيع أن نتتبع مراحل الحرب الفكرية الاعتقادية التي شنّها محمد بن تومرت على دولة المرابطين ، حتى انتهت إلى حرب دامية ، قضت على المرابطين ، وعفت آثارهم في ميداني الحكم والعلم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقد ابتدأ ابن تومرت ظهوره في البلاد المغربية من ليبيا ، وكان ظهوره ذلك في صورة عالم سنّي أشعري ينتصر للعقائد السلفية بالحجج العقليـة ، ويأخذ بطريقة تأويل المتشابه ، ويعتني بإبراز هذه الطريقة وإظهار النكير على الذين عدلوا عنها ، ويجنح مع ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقدم على تغيير المنكرات التي كانت متفشية يومئذ في المجتمع المغربي ، فكان بهذا العمل يثير الثائرات ويتعرّض للأذى . وتنقل على هـذا المسلك من طرابلس إلى المهدية ، إلى بجاية إلى جبال الونشريس ، إلى تلمسان ، إلى فاس ، إلى مكناس ، إلى مراكش ، عاصمة الدولة ، وكان ملكها يومئذ علي بن يوسف ، وفي هذه الرحلة لقي ببجاية أول أتباعه عبد المؤمن بن علي الكومي ، فلازمه في بقيتها إلى مراكش ، وفي مراكش ابتدأت مقارعات ابن تومرت ومناظراته ، وفيها تهجّم لأول مرّة على الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين بوعظ في جامع المرابطين ، يوم الجمعة ، أغلظ له فيه القول ، ثم خرج إلى أغمات وجرت له فيها مناظرات خرج بعدها مختفياً في خفارة القبائل البربرية في جبال الأطلس ، ثمّ قصد بلاد السوس فنزل في قبيلته هرغة سنة ٥١٥ وبنى هنالك رباطاً للعبادة والتعليم ، وألف مختصراً في العقيدة سماه « المرشدة » جعله باللسانين العربي والبربري ، وأخذ يعلّمه الناس عامة وخاصة : من طلبة رباطه ، وعامة القبائل في أرض السوس ، ولقّب أتباعه الموحّدين ، وتلقّب بينهم بـ « الإمام » وسار في تأليف تلك الجماعة وتوجيهها على التدرج في الدعوة والتعليم للوصول إلى الغاية المقصودة ، على نحو ما هو مسلوك عند دعاة الشيعة الباطنية من ترتيب الدعوة ومنازلها .

ولمّا لاحظ ابن تومرت أن الدعوة المرابطية السلفية قد أقنعت الناس بوجوب اتباع السنة وتحصيل الأحكام الفقهية منها ، فقد بنى ترتيب دعوته على بيان طريق تحصيل الفقه في السنة فبسط في ذلك كلاماً أوله « أعزّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كلّ خير »، وقد اشتهر هذا الكتاب باسم مفتتحه وهو قوله « أعزّ ما يطلب » فصار لقباً عليه ، وقد بني هذا الكتاب على مباحث : ترجع إلى الأخبار ، وطرق النقل ، والفرق بين التواتر وأخبار الآحاد ، بصورة عليها سمة من طرائق الأصوليين من الأشاعرة ، في الفكرة والعرض والمصطلح ، ثم عقد كتاباً خاصاً للصلاة والطهارة جعل مداره على استخراج الفقه من الأحاديث وتنزيل نصوص القرآن ، ثم كتاباً في الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل بيّن فيه معنى القياس باعتباره راجعاً إلى دلالة اللفظ ، ثم يأتي كتاب آخر للكلام على مباحث الألفاظ ، من العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، وغيرها ، على طريقة علماء الأصول ، فعندما يطمئن أنه قد ربط المتلقين بتوجيهات علم أصول الفقه ، يبتدئ كتاباً للكلام على العلم وطرق تحصيله ، ثم آخر للكلام على المعلومات وأقسامها ، وآخر للكلام على الوجود وتقسيمه ، لإثبات واجب الوجود على طريقة علماء الكلام حيث يتدرج من السنة الأثرية إلى الكلام المنطقي بصورة غير مشعور بها ، ثمّ يختم ببيان معنى العبادة وشروطها وكيفية ربط التكاليف العملية بالأصول الاعتقادية ، وتعليم من ثم مظنّة السؤال عن ذلك طرق الإرشاد واختلاف أحوال المسترشدين ، ومن هذا كلّه ينتظم كتاب الدعوة الموحّدية المشهور باسم « أعزّ ما يطلب » ، وإن كان مفصّلاً على كتب مفتتح ومختوم كلّ كتاب منها بما يوهم أنه تأليف مستقلّ ، على طريقة المتقدمين في تقسيم التأليف الواحد إلى كتب يستقلّ بعضها عن بعض ، ويعتبر هذا التأليف وهو « أعزّ ما يطلب » ثاني تآليف ابن تومرت بعد « المرشدة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله كتاب ثالث هو كتاب العقيدة وهو سالك مسلك كتب العقائد الأشعرية المتأثرة نهج كتاب التمهيد لأبي بكر الباقلاني ، مع اختصار وجنوح إلى الرواية ، ويتبع كتاب العقيدة تنبيهات للتذكير بقواعد التوحيد والتنزيه ، وبعد ذلك يأتي كتاب رابع هو بيت القصيد ، وهو كتاب الإمامة ، فيبتدئه بتقرير عقيدة لزوم الإمام المعصوم وسوق علاماته ، التي يشير بها إلى نفسه ، ثمّ ينتقل إلى بيان ما عليه طوائف أهل الباطل الذين يسمّيهم بالمشبّهين ويطبق عليهم أخباراً نبوية عن سوء مصيرهم في الآخرة ، ويصف ما أحدثوه من المناكر حتّى ينتهي إلى وجوب مخالفتهم وتحريم معونتهم ، ثمّ إلى وجوب جهادهم وفضل الصبر على ذلك الجهـــاد ، وتبشير الذين يجاهدونهم بأنهم الموعودون بما وعد به القائمون على الحقّ ، وبيان أركان الإيمان التي يجب أن يتمسّك بها أتباع تلك الطائفة الموعودة بالنصر ، حتى ينتهي إلى تقرير أحكام الجهاد ، شاملاً الجهاد بالنفس والجهاد بالمال .

وقد جمع هذه المقالات وأملاها تلميذه الأول ومؤسس دولته عبد المؤمن ابن علي فأملاها ونسجت من إملاءاته وأسند سماعها إلى مجالس سنة ٥١٥ في رباط هرغة ، فكانت دستور دولة الموحدين والدول التي قامت على أسسها في شمالي افريقيا والأندلس ، وكانت إلى جنب ذلك مكونة لحاصل عظيم الأهمية في تاريخ الفكر هو إعداد الجوّ الفكري في المغرب العربي لحياة الحكمة الأشعرية وبعث حركتها ناشطة من عقالها ، لإبراز النتائج المبنية على المؤاخاة بين فروع الثقافة الإسلامية : مؤاخاة تغذي الدين بالحكمة ، فلقد كانت الصدمة العنيفة التي اصطدم بها تيار النظر الحرّ ، الجامع بين الدين والحكمة ، من طرف المنصور بن أبي عامر ، ثمّ من طرف المرابطين ، صدمة ذات أثر بعيد في وقف حركة التقدّم الفكري ، وقطع ما بين الدين والحكمة من عوامل التلاقح ، التي ازدهرت بها الحكمة الدينية في المشرق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكما حكى ابن العربي أن أصحاب الحكمة الدينية العليا كانوا يستترون بالتقليد المذهبي في الفقه ، ويجعلون نظرتهم في علم الكلام تابعاً خفيّاً ، فكذلك كان الحكماء المتفلسفون يتظاهرون بالاقتصار على علم الطب والعلوم الحسابية ، ويكتمون ما عندهم من الحكمة ، مستترين بما يظهرونه مما تجوز لهم فيه مثل الحساب والفرائض والطب ، كما حكى ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم .

ولقد كادت الحكمة أن تعاود عهد ازدهارها بالأندلس ، عند سقوط قرطبة وقيام ملوك الطوائف ، لولا أن الخطر الاسباني ، ثمّ الحكم المرابطي ، قد قطعا دونها ذلك الأمل ، فانكفأ الحكماء إلى بيوتهم عاكفين على كتبهم منطوين على أنفسهم وما منهم إلاّ متمثّل بالبيتين القديمين لابن عبد ربه الحفيد :

لما عدمت مؤانساً وجليسا نادمت بقراطاً وجالينوسا

وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي وهما الشفاء لكل جرح يوسى

فلمّا انتصرت الحكمة الدينية متمثلة في المهدي ابن تومرت على المرابطين ، وأدالت دولتهم ، كان ذلك الانتصار رافعاً لحاجز كان قائماً في طريق تقدّم الحكمتين ، وحائلاً دون تواصلها ، فاندفعت بارتفاع الحاجز القوّة المكبوتة واستأنفت سيرها من حيث وقفت ، بما بقي مكنوناً فيها من فاعلية تيار السير المقطوع .

هنالك أبرز العلماء ما كانوا يضنون بابرازه : من كتب الحكمة والكلام وأصول الفقه والجدل والتصوف ، وأظهروا نظرهم فيها ، وتدارسهم لها ، وصدعوا بالتنويه بها وتمجيدها ، وصرحوا بما بين ما كانوا يظهرون ، وما كانوا يخفون ، من وحدة لا ترضى بتفكّك أوصالها .

وبهذا الاندفاع الجديد أصبحت طائفة العلماء ، من أهل الحكمة الدينية ، وأهل الحكمة الفلسفية ، ظهيراً للدولة القائمة دولة الموحّدين ، لا في سلبية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التوارد على كراهية الحكم المرابطي فحسب ، بل في إيجابية المثل الأعلى من توجيه الدين بالحكمة ، وتحليله بالمنطق ، وهو المثل الذي بدا في مذهب الإمام المهدي ، وما يقوم عليه ذلك المذهب من قواعد الحكمة الإسلامية ، التي أسسها الأشعري ، وأسندها الغزالي .

وبذلك أصبحت لابن تومرت منزلة مشاعة بين عصبيتين متظاهرتين : عصبية سياسية تمثلها دولة عبد المؤمن بن علي وأشياعها ، وعصبية مذهبية يمثلها المتطلعون إلى نصرة الحكمة الدينية المحجوزون طويلاً في ما مضى من دولة المرابطين على مواصلة سبيلهم نحو ما تحرّقوا عليه من إعلاء شأن الحكمة ، وارتبطت ثانية العصبيتين بأولاهما حين بادر المتمسكون بالأشعرية والمازرية ، في الكلام المدلّل والفقه المعلّل ، إلى الاتصال بعمد الدولة الموحدية ، كما سافر القاضي أبو بكر ابن العربي إلى لقيا عبد المؤمن بمراكش .

ومن جهة أخرى بادر المتمسكون بالتعاليم الفلسفية والأنظار الحكمية إلى هذه الدولة يؤازرون المتكلمين والفقهاء في تأييدها ونصرها ، والدخول تحت طاعتها ، كما فعل ذلك الفيلسوف الكبير أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّة ، والحكيم الاشراقي الأعظم القاضي أبو بكر بن الطفيل صاحب القصة الفلسفية الخالدة « حيّ بن يقظان » .

وكان هذان الحكيمان الجليلان : ابن باجّه ، وابن الطفيل ، متعايشين في القطر والعصر ، متقاربين في المذاهب والأنظار ، على ما بينها من فروق دقيقة في آراء ترجع إلى كليات أصول الحكمة ، وجزئيات من مسائلها ، زيادة على أن واحداً منهما لم يلق الآخر ، وكان أهم ما يتلاقيان فيه شعورهما بأن الحكمة التي أقامت نهضة العلوم الدينية وألفت فيما بينها ، وهي حكمة الغزالي ، قد كان يبدو عليها شيء من التضارب ، باختلاف المباني ، وتفاوت المقامات ، وتباعد الغايات ، إذ يجنح تارة إلى الوقف بمراحل الحكمة عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدّ البرهان ، ويسمو تارة أخرى إلى التجاوز بها إلى غاية الاشراق ، وذلك عين ما كان أخذه أبو بكر ابن العربي على الغزالي من الناحية الكلامية ، وشجبه عليه ، في كتاب العواصم من القواصم .

وكان ابن باجّه متصلّباً في نقـــد الغزالي متمسكاً بطريقة التعاليم الأرسطوطاليسية ، واثقاً بأن إدراك أهل النظر لما بعد الطبيعة إنّما يكون بالبحث الفكري ، فجاء ابن الطفيل ، على إعجابه بابن باجّه وطريقتـه ، يكشف أن مذاهب الحكمة ، على ما بينها من اختلاف الأساليب والطرائق ، هي متلاقية متكاملة وليست متباينة ، ولا متنافرة ، وإن الحكمة النظرية تنتهي بمتّبعها إلى موقف تبتدئ من ورائه مراحل الحكمة الإشراقية ، وبذلك يأخذ على الغزالي أنه قرّر المذاهب متخالفة ، ولم يسلم من الوقوع في أحدها بعد الآخر ، على طول البحث ويمثل لذلك بكتاب « تهافت الفلاسفة » ، مع اعترافه بأن الغزالي قد سعد السعادة القصوى ، وأنه رجل أدبته المعارف ، وحذّقته العلوم ، ثمّ ينتقد فلسفة ابن باجّة بأنها قصرت عن غاية الحكمة ، ولم يفض إلى حقيقة الكمال ، ثمّ يصعد إلى الفارابي وابن سينا ، فيأخذ على الفارابي تنطّعه في الاغترار بالفلسفة ، اغتراراً نبا به عن حكمة الدين ، ويأخذ على ابن سينا أنه جرى على مذهب أرسطوطاليس فلم يستطع أن يصل به إلى الكمال ، فمدل إلى الحكمة المشرقية .

وكذلك كانت الحكمة في نظر ابن الطفيل ملتئمة من المبادئ المشائية والغايات الإشراقية ، وليست كاملة ، لا بالفلسفة التعليمية ولا الافلاطونية الحديثة ، وإنّما هي متكاملة لاجتماعها كلّها على صورة يحقّق بها كلّ مذهب ناحية من نواحي الكمال هي النواحي التي لا تتلاقى جهاتها إلاّ باجتماع الدين والحكمة ومعرفة ما بينها من ارتباط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك هو الذي كانت الحكمة الأندلسية في تيه عنه ، وكانت الحكمة الإسلامية الرائجة بالمشرق ، بعد ابن سينا ، قد أدركته أو قربت فيه ، بما ظهر من خلاصة الأسرار الحكمية التي صرّح بها الشيخ الرئيس في كتاب الإشارات ، وكنّى عنها بضرب المثل في قصة حي بن يقظان ، وما ظهر في كتب ابن مسكويه « الفوز الأصغر ، والفوز الأكبر » من استناد يساعد العقيدة بالعلل الفلسفية . وعلى هذا الاطمئنان العجيب إلى اتصال حقيقة الحكمة العقلية بحقيقة الحكمة الدينية أقبل ابن طفيل على الدولة التي جعلت شعارها إمامة المهدي في الجمع بين الحقيقتين ، فانتقل من العدوة الأندلسية إلى العدوة المغربية ، حتى اتصل بالسلطان يوسف بن عبد المؤمن ، فطارحه حكمته وحبّب إليه مبادئه وربط سلطة الموحّدين بخطّ مذهبه الفلسفي ، ولم يزل نصب عين ابن الطفيل ، منذ استقرّ بمرّاكش في قصر الموحّدين ، ذلك الشاب الناشئ تحت دوحتي الحكمة ، المتضلع من درّي الشريعة والفلسفة : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد .

نشأ هذا الشاب في بيت الفقه والقضاء ، وتطلع إلى أسمى مراقي النظر العلمي ، فاتصل في حداثة أمره بالإمام أبي عبد الله المازري : شدّ الرحلة إليه في افريقية ، وتخرّج به في تحقيق النظر الفقهي على مدارك الشريعة وأصولها ، وتلقّن منه أصول الطريقة الكلامية الأشعرية التي كان المازري يخوض لججها مع إمام الحرمين الغزالي .

وفتح ابن رشد عينيه على روض العلوم الحكمية بالأندلس ، وقد زكا نبته ، وأينع زهره ، بتقلّص سلطان المرابطين ، فأقبل على فلسفة القدماء وأتقن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، واستخرج كنوز الحكمة المجهولة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتعاطف على رأسه غصنان من علوم الإسلام وعلوم الأوائل ، فلم يجد خريتاً يهديه سبيل الحكمة المأمون ، غير القاضي ابن الطفيل ، فكان هو الذي أوقفه على ما يزكي الحكمة من الدين ، ويزكي الدين من الحكمة ، على النحو الذي عرضه في قصة حي بن يقظان .

وكان ابن رشد في الوسط السنّي الفقهي ، الذي نشأ فيه بقرطبة ، متّصلاً اتصالاً محكماً بآثار أبي بكر ابن العربي وأخباره ، فقد أخذ عن تلاميذه : مثل الحافظ ابن بشكوال ، ووقف بذلك على ما كان للغزالي من أثر في ابن العربي وفقهه ، ووقف على آثار الخلافات الفقهية والاعتقادية التي ثارت بين مالكية الأندلس وابن حزم ، وما تركت من دويّ متجاوب الأصداء في قرطبة ، ووقف على كتب ابن حزم ، واعتمد عليها في تأليفه ، فحقّق ما يشهد به المنصفون لابن حزم ، وإن خالفوه ، من سعة العلم ، وحدّة الذهن ، وقوة العارضة ، حتى انه على ظاهريته اعتنى بالحكمة العقلية وألف كتاب التقريب لحدود المنطق الذي قال القاضي صاعد « انّه بسط فيه القول على تبيين رق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية ، وجوامع شرعية ، وخالف أرسطوطاليس في بعض أصوله » . فكانت هذه المثل من استعمال الحكمة العقلية لتقريب الفقه موجّهة لابن رشد إلى مجاراة أربابها ، باستعمال الحكمة المثلى التي كان يشعر ، تبعاً لأستاذه ابن الطفيل ، بأنّ الناس من قبل لم يتوصّلوا إلى صحيحها .

على هذا التأثير الذي سيطرت به روح الحكمة المجددة على نفس الحفيد ، ترك ابن الطفيل صاحبه ابن رشد بقرطبة لما استقرّ هو في مراكش .

فلم تزل بوارق الأمل في تلك العبقرية تلمع بين عينيه حتّى لحق ابن رشد بمراكش سنة ٥٤٨ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ولقي الخليفة الموحّدي يوسف بن عبد المؤمن بواسطة أستاذه ابن الطفيل ، وحاوره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حواراً فلسفياً راقياً ، أثبت له رسوخ قدم الخليفة الموحدي في الحكمة بصورة يندر وجودها عند أمثاله ، وبسبب ذلك رغب ابن الطفيل من ابن رشد ، بما له من التمكن في اللغة اليونانية ، أن يتولّى دراسة كتب أرسطوطاليس وشرحها وتلخيصها حتى يخرج بها عن دائرة الغموض التي كانت محيطة بها .

انتدب إلى ذلك ابن رشد وبذل نفيس عمره في خدمة الفلسفة وتحقيقها وبسطها واعتمد على مذهب أرسطو فجعله قطب النظر ، وقارنه وناظره بالمذاهب ، وعلّق عليه بالنقد والتصويب ، وبيّن منزلة بعض المواضيع من بعض ، ونسبة بعض المذاهب من بعض ، واحتفل خاصة بقسم مابعد الطبيعة وهو مجال معترك الأنظار ، فحقّق نواحي التفارق والتلاقي بين سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، مناقشاً ابن سينا آراءه الخاصة أو تخاريجه لكلام أرسطو ، كما يناقش تخاريج المتقدمين من شرّاح أرسطو اليونانيين ، ومن المشهور أن ابن رشد بهذا العمل قد كان مؤسساً للفلسفة تأسيساً جديداً ، ومشيعاً لها إشاعة أضاءت ظلمات القرون الوسطى ، في أروبا ، بفجر عصر النهضة ، ولكن الأهم وراء ذلك هو ما كان لابن رشد من أثر مباشر في العلوم الدينية ، فقد تأثر ابن رشد خطى الغزالي في الحكمة وأصول الفقه والفقه ، فتناول كتاب تهافت الفلاسفة ، وكتاب المستصفى ، وكتاب الوجيز ، فجعل تتبّعه لكتاب التهافت تتبعاً تحليلياً حرفياً يتناول تحقيق مذاهب الفلاسفة بطريقته العميقة في شرح الحكمة ، ونقد ردود الغزالي بأنها ليست واردة مورد البرهان الناقض على محلّ النزاع ، حتّى انتهى بذلك إلى العقدة التي جعلها ابن طفيل أقوى مأخذ على فلسفة الغزالي ، فجعلها مقطع الحقّ ومنقطع المناقشة وطوى بذلك كتاب تهافت التهافت ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم لخّص تلك المناقشة في صورة منهجية في كتاب « فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتّصال » .

أما كتاب المستصفى فقد لخّصه تلخيصاً ، ذكره في ترجمته الشيخ أحمد بابا في ذيل الديباج ، وتعرّض إلى الإلمام بأراء الغزالي الأصولية في كتاب مناهج الأدلة بما دلّ على أنه لا خلاف يذكر بينها في مسائل أصول الفقه .

وأما كتاب الوجيز فهو الكتاب الذي اختصر فيه الإمام الغزالي مذهب الشافعي ، ملخّصاً فيه كتابيه الوسيط والبسيط ، وقد جعل اختصار الفقه مبنياً على الاقتصـــار على قول الشافعي والإشارة إلى خلاف المذهبين المالكي والحنفي إشارة ردّ واستبعاد ، وكذلك فعل بالأقوال التي تخالف قول الشافعي داخل المذهب ، وخاصة أقوال المزني ، فجاء هذا الصنيع متأثراً بالأصول الجدلية التي تنظر في مدارك الأحكام لقصد الانتصار إلى مذهب معيّن ، لا لقصد استيلاء الحقيقة لذاتها ، وكان ذلك تضييقاً لدائرة التقليد ، فجاء القاضي ابن رشد يساير صنيع الغزالي في الاختصار وإيراد الأقوال المخالفة ، ولكنه يجنح إلى الاقتداء بابن العربي في التخفيف من التزام التقليد ، فيتوسع في الخلاف ، ويشير إلى الأدلّة التي كانت منشأه ولا يلتزم الانتصار لتقليد مذهب معيّن ، ولكنه يفتح باب النظر في الأدلة حتى لا يغلق باب الاجتهاد أصلاً ، ويبقى ولو في حدود النظر المذهبي ، فكان إيراد المذاهب عنده لتربية ملكة الاجتهاد عليها ، لا لدحضها ، ونصر مذهب معيّن وبذلك استطاع ابن رشد أن يفتح في المذهب المالكي طريقاً سدّه الغزالي في المذهب الشافعي ، هو الطريق الوسط بين الاجتهاد والتقليد ، الذي يشير إليه اسم الكتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وقد ذكر فيه أنه عازم على وضع كتاب آخر في المذهب المالكي ، يتجنّب فيه إحصاء الروايات لأن ذلك شيء ينقطع العمر دونه ، ولكنه رتّبه ترتيباً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صناعياً حتّى يكون القارىء مجتهداً في مذهب مالك ، ويظهر أنه لم يتمكن من إنجاز عزمه هذا فلم يكن له ، في ما عُدّ من جريدة كتبه الكثيرة ، كتاب في الفروع المذهبية ، وقد وهم صاحب معجم المطبوعات ، فنسب إلى الحفيد ابن رشد كتاب المقدمات الممهدات ، والصواب أنه لجدّه الحافظ ابن رشد الجدّ صاحب البيان والتحصيل ، وحافظ المذهب .

وكفى حفيده يداً على الفقه المالكي أنه بوضعه كتاب بداية المجتهد قد لقّح حياة الاجتهاد ، بما بعث في المذهب المالكي حركة التفقه التي ظهر بها الإمام ابن عرفة في القرن الثامن ، ثمّ التصرف الاجتهادي في جريان العمل الذي شاع من عهد تلاميذ ابن عرفة : البرزلي ، وابن ناجي ، فأصبح أصلاً للتطور الفقهي في ما بعد القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، فكان كتاب بداية المجتهد لمحة من لمحات الحكمة العقلية التي امتاز بها ابن رشد الحفيد تركت أثراً في تطور الفقه المالكي بالتفقه والعمل ، وأثراً في الإبقاء على رمق من روح الاجتهاد مردد بين المذاهب .

كان هذا العمل الذي قام به ابن رشد الحفيد في القرن السادس بكتاب بداية المجتهد ، عملاً تصرفياً في الفقه . ناقض به العمل الالتزامي الذي قام به الغزالي في كتاب الوجيز ، فبقدر ما كان الغزالي يضيق الدائرة ويحصر الأقوال كان ابن رشد يوسع دائرة النظر ويكثر من إيراد المذاهب والأقوال ومقابلتها وإيراد حججها وأدلتها بحيث يجنح الغزالي إلى إبراز المذهب الفقهي الذي يتقلده في صورة الأمر الضروري ، كما هو عند المقلد ، في حال أن ابن رشد يجنح إلى إبرازه في صورته النظرية التي هي محلّ بحث ومجال اجتهاد ، كما هو عند الفقيه ، وإنه لمن المنتظر أن طريقة ابن رشد يكون لها أثر في المذهب المالكي ، وان طريقة الغزالي يكون لها أثر في المذهب الشافعي ، حتى يبدو كلّ من المذهبين مبايناً لمظهر الآخر ، ولكن ما بين المذهبين من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تواصل في المجال الأصولي ، وما بينها من تفاعل في البلاد الشرقية بصفة خاصة ، حيث يعيشان متجاورين في الحجاز والعراق والشام ومصر ، كان قاضياً بأن كلّ أثر يبدو في أحد المذهبين تحدث له صورة في المذهب الآخر ، فلمّا برز كتاب الوجيز للغزالي ولقي ما لقي عند الشافعية من احتفال وإقبال ، واحتلّ منزلة الإعجاب بحسن تنسيقه ، وجميل تبويبه ، ومحكم ربطه بين المسائل ، وإتقان تفريعها ، أحسّ الفقهاء من أتباع المذهب المالكي في المشرق بأن هذا المظهر الذي بدا به المذهب الشافعي قد أناله امتيازاً في حسن الضبط وسهولة المراجعة يجعله أيسر إلى تناول المقلدين ، فاغتبطوا بذلك واستشعروا خلو التآليف الفقهية في المذهب المالكي من تلك الميزة ، فحرصوا على تكميله باقتباس تلك الطريقة التي سهلت تناول المذهب من طالبيه ، وهم حين نظروا إلى الميزة الصناعية في التآليف لم يلتفتوا إلى ناحية التضييق والاقتصار ، التي انحاز إليها مذهب الشافعي بتأليف الغزالي ، لأن تشابه الأوضاع واستقرارها لم يكن من شأنه أن يبرز الاحتياج إلى ما اعتبر مهجوراً من الأقوال الفقهية ، حيث إن جريان الفتوى على الأقوال المشهورة المدوّنة ، وما لتلك الأقوال التي جرت عليها الفتوى من تطابق مع مقتضيات الأحوال كان مزيلاً لاعتبار الأهمية من تلك الأقوال ، قاضياً عليها بالجدارة للهجر والإهمال . بمثل هذه العوامل تأثر المالكية بمصر أثناء القرن السادس لما طار كتاب الغزالي إلى إخوانهم وأجوارهم الشافعية ، فأقبلوا عليه بما تقدّم وصفه من إعجاب ، وأحسّ المالكية بأن مذهبهم في حاجة إلى مثل ذلك التهذيب والترتيب ، ولم يلاحظوا ما لاحظ أحد أئمتهم العظام وهو قاضي قرطبة أبو الوليد ابن رشد من أنه يشتمل على تضييق دائرة النظر الاجتهادي ويلزّ المذهب في حيز التقليد ، وإن امتاز بما زانه من حسن الترتيب ، فكان تظلع هؤلاء الفقهاء إلى أن يسلكوا بالمذهب المالكي المسلك الذي اتجه الغزالي بالمذهب الشافعي موافقاً للوقت الذي كان فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقيه قرطبة وحكيمها يحاول أن يبرز أثراً مرتباً مهذباً يصدّ به تيار المذهب المالكي عن الاندفاع في ذلك السبيل . ففي العصر الذي كان فيه ابن رشد منكبّاً على تصنيف بداية المجتهد ، كان الفقيه المصري أبو محمد بن شاش منكباً على تصنيف مختصر جامع لفروع المذهب المالكي ، على ترتيب يساير صنيع الإمام الغزالي في الوجيز ، وهو مختصره البديع الذي سمّاه « الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » وقد قال في خطبته : لمّا رأيت كتاب الوجيز لأبي حامد الغزالي رحمه الله من أحسن ما حرّر فيما حرّره غيره من متقدّمي الأئمة ومتأخريهم ، فكان غاية منتهى التحرير ، لخصت المذهب في هذا الموضوع على القرب من محاذاته .

وسرعان ما ظهر هذا الكتاب حتى عكف عليه المالكية بمصر واستحسنوه وأعجبوا به ، كما ذكر ذلك ابن خلّكان في وفيات الأعيان ، وصارت طريقة دراسة الفقه على منهج كتاب ابن شاش : في الحرص على التفريع والجمع والإيجاز ، والإعراض عن الخلاف والمدارك ، وبقي كتاب ابن رشد خامل الذكر محدود الانتشار إذ لم يشاركه في نظره الحكمي البعيد إلا القلائل : لم ينتبه الأكثرون إلى أن ما خيّل لهم الاستغناء عنه من الأقوال سيحتاجون إليه في تقليب الأنظار عند اختلاف الأحوال .

ومضى القرن السابع على هذه الطريقة الالتزامية التي التحق فيها المذهب المالكي بالمذهب الشافعي ، متنكباً محاولة ابن رشد في الحفاظ على اتساع النظر الاجتهادي ، وازدان ذلك القرن السابع بظهور علم من أعلام الثقافة الإسلامية ، الجامعين بين مختلف فنونها في معرض الصناعة التعليمية ، التي تفرّعت من مناهج أصول الفقه ، فجمعت بين أسلوب تعليمي واحد علوم اللغة العربية والدين والحكمة من علم القراءات إلى علم العروض ، ذلك العلم الذي ظهرت عظمته في القرن السابع ، هو الإمام جمال الدين ابن الحاجب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحب المختصرات المعتبرة في النحو والصرف والعروض والمنطق والأصول والفقه والقراءات ، فانصرف إلى تأليف مختصره العظيم في الفقه المالكي الذي سمّاه « جامع الأمهات » ، وأفرط فيه في اتباع طريقة الجمع مع الاختصار ، حتى كان وهو جزء صغير جامعاً لمضمون ستين ديواناً من دواوين الفقه المالكي ، ومشتملاً على صغر حجمه على ستّ وستين ألف مسألة ، فعظم الإعجاب به ، وعمّ الإقبال عليه ، وملأت سمعته وسط القرن السابع ، وحلّقت في آفاق المشرق والمغرب مع أن ابن خلدون يعرض بنقده بقوله : إنّه جاء كالبرنامج للمذهب .

وبانتشار مختصر ابن الحاجب وعكوف الناس عليه هجر دارسو الفقه طريقة المدوّنة وتهاذيبها وشروحها ، بما عليها من مسحة النظر والاستدلال ، وتوجّهوا إلى دراسة ابن الحاجب بالاستنكار على طريقته من المسائل والفروع .

وكان طريق اتّصال مختصر ابن الحاجب الفرعي ببلاد المغرب العربي أن الشيخ ناصر الدين الزواوي ، من فقهاء بجاية ، ارتحل إلى المشرق في أواخر القرن السابع ، فلقي تلاميذ ابن الحاجب بمصر ، وتخرّج عليهم ، فجاء معه بمختصر ابن الحاجب ونشره في تلاميذه ببجاية ، ومن هنالك انتقل إلى عامّة أقطار المغرب العربي ، فعكف الفقهـــاء على دراسته وشرحه واعتنى به كبار فقهاء تونس : مثل ابن عبد السلام ، وابن هارون ، وابن راشد ، وفقهاء تلمسان : مثل ابني الإمام .

ولكنّ نزعة ابن رشد إلى الطريقة المخالفة للمنهج الالتزامي الاقتصادي ، الذي درج عليه ابن الحاجب ، لم تزل تغذّي حركة ردّ فعل تفديلي تجنح باتباعها إلى طريقة اتساع النظر الاجتهادي بين المذاهب الفقهية ، وقد تجلّت تلك النزعة واضحة في كتاب القوانين الفقهية للإمام أبي القاسم ابن جزي الغرناطي ، شهيد واقعة طريف سنة ٧٤١ ، فانّ ذلك الكتاب النفيس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على إحكامه ودقة ترتيبه ، لم يقتصر على المذهب المالكي ، بل أورد المذاهب الأربعة ومذاهب كثير من أهل الاجتهاد المنقطعي الأتباع ، فجمع ، كما قال هو عن نفسه ، بين تمهيد المذهب وذكر الخلاف العالمي .

على أن منهجاً جديداً في الدراسة العلمية قد ظهر بالبلاد التونسية في رحاب الجامعة الزيتونية أثناء القرن السابع كان قاضياً أيضاً بتعديل الغلو في الطريقة الفقهية الالتزامية ، وذلك هو منهج القاضي أبي القاسم ابن زيتون ، الذي تخرّج في المشرق على تلامذة الإمام فخر الدين الرازي ، ودرج على طريقته في الجمع بين العقليات والنقليات على الأسلوب التعليمي الراقي ، وقد تأيدت هذه الطريقة واستحكمت أساسها في القرن الثامن ، بنبوغ الحكيم الكبير إمام التعاليم والرياضيات أبي عبد الله الابلي ، المتكون في حكمته التجريبية على طريقة ابن رشد ، فتواصلت طرق التخرج على منهج النظر الحكمي في التكاليف الدينية بين أقطار المغرب في شمالي إفريقيا والأندلس ، فظهر من أعلام تلك الطريقة أعلام درسوا الفقه بالتعقيد والمقارنة وربط الفروع بالأصول مثل الإمام أبي عبد الله المقري التلمساني ثمّ الفاسي ، والإمام أبي اسحاق الشاطبي الغرناطي ، والإمام العلاّمة أبي عبد الله العلويني الشهير بالشريف التلمساني ، الذي عدّ من أهل الاجتهاد ، وقد أنجبت الجامعة الزيتونية بتونس في هذا القرن الثامن فذّاً من الأفذاذ الجامعين بين الحكمة والفقه تخرّج بطريقة الابلي وبرز في العلوم الحكمية أولاً ، ثم اشتغل بالفقه فأتى فيه بالعجب العجاب ، ذلك هو شيخ الإسلام محمد بن عرفة .

ابتدأ ابن عرفة تخرجه العلمي بالاختصاص في الكلام والحكمة والمنطق وأصول الفقه ، ثمّ انصرف إلى الفقه متأثراً بتكوّنه الحكمي ، فاتجه إلى الضبط والجمع والتنظير ، واهتمّ بصفة خاصة بالتحديد ، وشرح مواهي الأبواب الفقهية ، بتمييز بعضها عن بعض ، وأكثر من البحث والنظر والاستشكال ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فنقد كثيراً من الأقوال واستبعدها ، مبيناً وجه ذلك بتصوير الوقائع ، وملاحظة ما يتحقّق فيها من المصالح المقصورة للشرع ، وما لا يتحقّق ، ففتح بذلك في الفقه المالكي طريقة البحث النظري المعبر عنه « بالتفقه » الذي هو منهج الدراسات القانونية الجامعية اليوم .

وبهذه الدراسات النظرية الممحصة للأقوال الفقهية : نقداً ، وتحريراً ، ومشاركة في المباني والمدارك ، اقترنت أحداث خارجية في حياة البلاد المغربية عامة والقطر التونسي خاصة ، ختم بها القرن الثامن : من دخول سلطنة الإسلام بالأندلس في الدور الأخير ، وإيواء اللاجئين من المناطق المفتكة إلى الرقعة الباقية والعدوة الافريقية ، وتضارب الدول المرينية والزيانية والحفصية في سبيل توحيد المغرب ، ودخول قبائل الأعراب في دور الاستقرار والتحضّر ، واستفحال الأزمة الاقتصادية بسبب سقوط منزلة البلاد في التجارة العالمية بفتح طريق الهند البحري ، زيادة على ما مرّ بلاد المغرب من الأحداث الإسلامية التي توالت بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد : من تجدد هجمة المغول بقيادة تيمورلنك ، وإشراق نجم العثمانيين ، فكان من أثر هذا المجموع من الأحداث أن ما كان يسود الدراسات الفقهية من الاطمئنان إلى الاختيارات والترجيحات التي استقرّ عليها الفقه المذهبي ، قد بدأ يتزعزع بما أسفرت عنه الأحداث الهائلة من انقلاب الأوضاع الاجتماعية انقلاباً فتح مبدأ الشعور بمشكلة قصور كثير من الأقوال الفقهية عن تحقيق المصلحة التي نظر بها إليها من قبل بسبب اختلاف الوضع عن الوضع ، فكان هذا الشعور أقوى سند للأنظار التفقهية التي ابتدأ الإمام ابن عرفة أثناء القرن الثامن يعلق بها تعاليق النقد والبحث على بعض الأقوال الفقهية ، واتخذ تلاميذه عن ذلك معياراً للاختبار التجريبي لنفاذ الرأي الاجتهادي الذي يحلّل به ابن عرفة الأحكام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبذلك كان القرن التاسع قرناً وضع فيه الفقه المالكي من جديد على بساط النقد والتمحيص حيث دخل في مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد : هو مقياس الفتوى والعمل ، فانّ طبقة من تلامذة ابن عرفة أخذت على عاتقها تطبيق الأحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة ما فرضت فيه تلك الأحكام من الظروف الزمانية والمكانية ، فاذا رأوا أن بعض تلك الظروف تبدل ، مالوا إلى العدول عن القول المشهور إلى قول غيره اجتهاداً منهم ، واستحساناً ، واعتباراً للمصالح الشرعية ، بحسب الوقائع والنوازل والأشخاص ، بمراعاة الأعراف والعوائد ، فأصبحت الفتاوى في كثير من الوقائع مختلفة عمّا اشتهر في أمثالها بسبب اختلاف جزئي في صور الوقائع ناشئ من اختلاف الأوضاع ، وكان البروز في هذا المجال الفقهي التجديدي لثلة من تلاميذ ابن عرفة ، فيهم من التونسيين : البرزلي ، وابن ناجي ، ومن الجزائريين : الحفيد ابن مرزوق ، وأبو الفضل العقباني ، حتّى تقرّر بصنيعهم هذا منهج العمل الذي أصبح تعديلاً ضرورياً لما سبق من الرجحان واشتهر ، وكان الذين تولّوا القضاء من هؤلاء أتمّ تمكّناً من ملاحظة تلك الدواعي فساروا على منهج التصرّف الاجتهادي في التأويل ، وأسسوا لجريان العمل مادة جديدة للفقه ، فأظهر القاضي ابن ناجي في كتبه من حسن التحقيق لمناط الفتاوى والأحكام ، والبراعة في تنزيل القواعد والمقاصد على الصور الحادثة ، ما جعل صورة الفقه المالكي من بعده مصطبغة بآرائه صبغة خاصة . كما أبدى البرزلي في مجموع فتاويه المسمى « جامع مسائل الأحكام لما ينزل بالمفتين والحكّام » نظراً بعيداً سديداً ، في التصور والتطبيق والتنزيل ، تناول أكثر مسائل الفقه بصورة كشفت في تطبيق الأحكام ، عن أوجه لم يكشف عنها من قبله لثام . ومثل ذلك المسلك سلك العقباني في أجوبته التي ضمن الكثير منها تلميذه الشيخ يحيى المنيلي المازوني في كتابه « الدرر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المكنونة في نوازل مازونة » أما العلامة ابن مرزوق الحفيد فقد سما في فقهه إلى أفق تحرير الأفكار وابتكار الأنظار ، حتى شهد له ببلوغ درجة الاجتهاد المطلق ، ولقد كان حريصاً على تعرف المذاهب وحسن دراستها لتوسيع نظره الاجتهادي ، فدرس الفقه الشافعي في تلمسان بكتاب التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي والوجيز للغزالي ، مع أنه لم يكن هو ولا واحد من طلبته ولا من أهل مدينته شافعياً .

وبهذه النزعة التفقهية التطبيقية انتهج الفقه نحو التطور منهجاً جديداً سلك من القيروان إلى الأندلس ثمَّ رجع واستقرَّ بفاس فأبرز اختلافاً واضحاً بين ما تقرَّر من الأحكام في الدواوين والمختصرات ، وما طبق في مجاميع الفتاوى والنوازل ، على نحو ما نجده في لامية الزقاق من القواعد والمثل ، وما نجده في ما ضمنه الشيخ أبو العباس الونشريسي في مجموعه العجيب « المعيار المغرب والجامع المقرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب » وهو كتاب في أسفار ضخمة يتبيَّن لمتصفّحه عندما يقابله بجواهر ابن شاش أو بمختصر ابن الحاجب كم استطاع النظر الفقهي في هذا المغرب أن ينتج من تطور ويظهر من حيوية ، لما عدل عن المنهج الالتزامي وسار على المنهج التصرفي الذي فتحه ابن رشد ، ومهَّده ابن عرفة وتلاميذه ، وأقام أعلامه الونشريسي في المعيار .

محمد الفاضل ابن عاشور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net